السيكلوجية الحديثة

الغريزة الجنسية في التحليل النفساني

يعقوب فام

في سنة ١٨٨٥ كان فرويد في باريس يدرس تحت ارشاد شاركو ضروب العلاج بالتحليل النفساني وكان مما يقوله هذا الأخير لفرويد ان « السبب الأصلي في كل عقدة نفسية هو المسألة الجنسية » فكان فرويد يعجب لماذا لا يضع الاستاذ نظريته هذه ويدافع عنها أمام الناس . وعلى كل حال لم يفعل شاركو شيئاً من هذا وترك هذا الميدان دون ان يزعم هذا الزعم بطريقة رسمية

ثم بدأ فرويد يعلن هذه النظرية للناس ويتضح عنها بكل ما أوتي من جهد وقوة ، ولم يقف عند هذا الحد بل تمادى في هذا الفرض تمادياً جعلنا نعتقد انهُ لا يرى في الانسان شيئاً او منزعاً الاَّ من هذه الغريزة ، لا بل نستطيع ان ندعو هذه المدرسة بمدرسة السيكلوجية الجنسية من غير ان نكون متعنتين او مفترين بوجه من الوجوه

كنت أتحدث في هذا مع صديق لي من المشتغلين بالسيكلوجية في مصر . فكان مما قاله لي اني لا افهم فرويد كما يجب ان يفهم ، قلت قد يجوز ، فأنا لا أدعي اني معصوم من القصور في الفهم ، ولا ادعي اني افهم كل ما يمرُّ بي في مطالعاتي . اذ اني أذكر مرة اني قرأت كتاباً عدد صفحاته حوالي الاربعمائة وثمنه سبعون قرشاً دفعتها من مالي الخاص دون ان افهم من هذا الكتاب شيئاً على الاطلاق ؛ فلا يجب ان اقطع برأيي في مسألة فرويد ، ولا يجب ان أتسرع في طريقة عرضي لآرائه ، ولكن ما قولك في ان كل من قرأتهم من علماء النفس متفقون على أنهم فهموا ما فهمت منهُ أنا ، وما قولك في انهم يبنونه على ان نظريته في السيكلوجية مبنية في الاغلب على « الغريزة الجنسية » وعلى كل حال سواء أكان اتهام صديقي لي على حق أم على غير حق فاني اعتزم ان اترك الحكم للقرّاء في هذا الموضوع ، اريد ان أبسط امامهم نظريته وهم وحدهم ان يحكموا في هذا النزاع

ينكر فرويد الزعم بأن سيكلوجيته مبنية على الغريزة الجنسية فقط . ينكر هذا وبلحٌ في الانكار . ولكنهُ يزعم ان أهم شيء في التحليل النفساني هو العوامل الجنسية . هذا من جهة ، واما من الجهة الأخرى فان جميع حالاته يرجعها الى عوامل جنسية في تحليله ، لا بل يفسر جميع الظواهر النفسية على هذا الاساس ، فكأنهُ ينتقض باليمين ما يبنيه باليسار ، واظن ان الخلاف بينه

وبين أدلر نشب في هذا الميدان ، وانفصل التلميذ عن استاذه لهذا السبب دون غيره . واستمرت بينهما الحرب لهذا وليس لشيء آخر ، فبينما يزعم فرويد ان جميع الحالات النفسية التي عالجها ترجع الى نزاع جنسي في النفس او الى نزوع جنسي لم يتحقق بشكل من الاشكال ، بينما يزعم فرويد هذا يقول أدلر ان رغبة التسلط هي الحافز لنا في جميع انواع النشاط ، وان الالتواء في هذه النزعة او القصور في تحقيق غايتها هو السبب الاساسي في الاضطرابات النفسية ، وتكفي ان تكون المسألة الجنسية هي محور الخلاف وسبب القطيعة بين الاثنين لكي اكون مطمئنًّا الى اني لم أعدُ الصواب حين ازعم ان محور التحليل النفساني على طريقة فرويد هو المسألة الجنسية ، واذا كان صديقي الذي اوردت قوله فيما سبق لم يقتنع بعد فليرجع الى اسباب الخلاف بين فرويد وبين يونج ، فان يونج فهم ما فهمت ، واختلف معهُ فيما اختلف معه فيه الآن ، فما ذنبي يا ترى اذا كان الجميع قد فهموا من فرويد ما فهمت

ونظريات فرويد في الغريزة الجنسية يتلو بعضها بعضاً ويأخذ بعضها برقاب بعض حتى لا تكاد تفيق من كثرة تزاحمها امامنا . فالانسان في رأيه لا يأكل او ينام او يلهو او يجد او يفكر او يحلم الاَّ بدافع من الجنس . وقد يكون واعياً للدافع الجنسي ، وقد لا يكون واعياً ، ولكن الدافع الجنسي موجود بلا شك في جميع الحالات

طفل في السنة الاول او في الشهور الاولى من حياته ، تضمه أمه على صدرها وترضعه فيشبع ويعاف الطعام ويريد ان يترك لنفسه ليلهو بنفسه ويلعب ، يشاهد الدنيا حوله ويتتبع الحركات فيها بعينيه ، وبينما هو يراقب المناظر الطبيعية والاجتماعية حواليه يضع ابهامه في فمه ويمتصه ، ثم يمتصه وقتاً طويلاً ، تدور انت تبحث عن الدافع لهذا العمل فتجد اجوبة تتعدد بتعدد المجيبين والدوافع الممكنة لمثل هذا العمل ، قد تقول ، وقد تصيب فيما تقول ان هذا الطفل يلهو بهذا العمل ، وقد يقول غيرك لانه محتاج فهو يضع اصبعه فيها ليبرد من هياجها . قد يقول أحدنا هذا او شيئاً مثله ، وقد نخطيء او نصيب في البحث عن العلة في تصرف الطفل ، ولكن فرويد يزعم ان عمل الطفل هذا هو الغريزة الجنسية بعينها ، او هو وظيفة هذه الغريزة عند الاطفال ، وبالطبع هذا زعم لا نقبله لانهُ لا يقوم عليه دليل اولاً ، ولانهُ يتعارض مع الذوق العقلي في أبسط مظاهره

ومثل آخر على ما يراه فرويد في شأن هذه الغريزة التي اوشك ان لا يرى في الانسان سواها — انسان يرى فيما يرى النائم انهُ يتسلق سلّم منزله او اي منزل آخر . بالطبع لا تكون هذه الحقيقة هي كل محتويات الحلم ، وانما يتبعها مشاهد ومظاهر اخرى ، فلو سألني هذا الانسان في معنى حلمه لأجبته ان معدته ليست على ما يرام او ان احد اعضاء جسمه لا يؤدي وظيفته كما يجب ان يؤديها ، او ان حرارة جسمه ارتفعت في اثناء النوم لسبب من الاسباب ، وان لم يعجبهُ واحد من هذه الآراء اقول له انها اضغاث احلام . اما فرويد فيفسره هكذا : في صعود السلم توافق من الحركات

الايقاعية Rythm ، فالابعاد بين الدرجات متساوية ، والحركة التي يأتيها الانسان في سعوده تكون بالتالي متوافقة ، ثم يجب ان لا ننسى ان الحركات التي تستتبع تحقيق الغريزة الجنسية فيها توافق ايضاً ، فيكون معنى هذا الحلم هو في الواقع تمايل من تلك الغريزة على تحقيق غايتها بشكل غامض مبرقع ، فهذه الغريزة تريد ان تتحقق على اي حال ، ولما كان تحقيقها تقوم في سبيله سعوبات جمة لا قبل للواعية بالتغلب عليها ، فتحقق بطريقة لا تستطيع ان تعترض عليها الواعية

وهذا التفسير لا يستقيم لافهامنا على اي حال ، لانهُ مناقض لابسط قواعد الذوق السليم Common sense ولا ارى ان هنالك علاقة بين سعود السلم والغريزة الجنسية ، ومسألة التوافق هذه ان هي الاَّ تكأة لا تصلح لتدعيم هذا الرأي بحال من الاحوال ، لاني ارى هذا التوافق او هذا الايقاع Rythm في للشي والعدو والسوم ، واراه في الطيور وهي تطير والحيوان وهو يسير ، واراه في حريان الماء واهتزاز الاشجار واراه في الموسيقى وفي الشعر والنثر ، وبالاختصار انا ارى هذا التوافق في كثير من المظاهر الطبيعية من النجوم في افلاكها الى الذرات في مداراتها ، وبالطبع لا يستطيع انسان ان يزعم ان جميع هذه هي مظاهر للغريزة الجنسية بشكل من الاشكال

يقولون ان الغريزة الجنسية عند فرويد لا يقصد منها ما نقصده عادة من هذا الاصطلاح في اللغة العادية وانما يقصد امراً اوسع واعرض مما تواضع عليهِ الناس ، فليس هو قاصراً على الدوافع الطبيعية التي تجذب الذكر الى الانثى من جميع الاحياء ، وليس الغرض منهُ فقط إخلاف النسل واشباع الرغبة الطبيعية ، وانما معناه عند فرويد اعم واوسع من هذا بكثير ، فحب الجمال من الغريزة الجنسية وحب السلطان والشهرة منهُ كذلك ، وغريزة حب البقاء والنسل من الغريزة الجنسية

ونحن نظن ان هذا تعسف في التفسير ، ومن قبيل تسمية الاشياء بغير مسمياتها ، فشأنهم في هذا شأن من يطلق مرضاً معيناً على جميع الامراض ، او لوناً معيناً على جميع الالوان ، وعلى هذا القياس يصح ان نسمي مجموعة الوان الطيف السمي احمر او اصفر ، على زعم اننا نقصد باللون الواحد جميع الالوان ، مع ان هذا لا يصحُّ لان فيهِ كثيراً من الخلط والارتباك الذي لا يعود بفائدة على احد لا بل فيهِ ضرر كثير وتشويش للافهام

وعلى هذا القياس نزعم انهُ سواء اراد فرويد بالغريزة الجنسية ما نريد ، ام اراد بها اكثر مما نريد فالنتيجة في الحالين سواء ، هي انهُ اغفل من حسابهِ معظم الدوافع النفسية التي تحفز الناس على العمل والحركة والسعي للحياة في مجموعها

يتبين هذا الاغفال للدوافع النفسية المتباينة من كثير مما كتب فرويد ومن مذاهبهِ في علم النفس حتى وان كنا نحن لا ننبه الى هذا الاغفال ، فمثلاً يزعم فرويد ان الصبي يميل لامه ويحبها اكثر مما يحب اباه . وينصب نفسه عنها مداقماً ويقف منها موقف القوي يحمي الضعيف ، ونحب الابنة اباها اكثر مما تحب امها ، وتظهر لابيها العواطف الرقيقة المحببة ، التي تظهرها الانثى عادة

للذكر وليس هذا فقط ولكنها تفاخر بأبيها وتعجب به وتزعم انهُ اقوى جميع الآباء وامضاهم عزيمة واشدهم بأساً

ويزيد فرويد على ما تقدم ان الصبي يغار من ابيه للعلاقة القائمة بين الوالد والوالدة ، ويحقد عليهِ ويود لو اختفى ابوه وترك الام للصبي وحده ، وكذلك البنت تغار من امها ، وتود لو احتلت هي المكان الممتاز عند ابيها الى آخر هذه المزاعم ، ثم يختم فرويد مزاعمه هذه بأن يعطي لهذه الظاهرة اسماً قديماً حتى تبين عليها المسحة الكلاسيكية ، فيدعم الاسم الطنان هذا التخريج الذي اقل ما يقال فيهِ انهُ قد لا يكون هو الواقع

اما ان هذه الظاهرة النفسية تظهر على بعض الاولاد فقد يجوز لا بل ربما نزعم انها محتملة ، ان الابن يحب امهُ اكثر من ابيه ، ويجوز انهُ يغار من الاب ايضاً ، ثم يجوز ان هذه الظاهرة النفسية تبين على البنت ، ولكن ماذا بعد ذلك ، قد نسلم ان هذه الظاهرة النفسية موجودة في الواقع ، فكيف نعللها ؟ وهل لا يمكن تعليلها الاَّ عن طريق الغريزة الجنسية ألا يمكن محال ان تكون هنالك دوافع نفسية غير هذه ؟ هل اثبت فرويد بما لا يدع مجالاً للشك ان الدافع لهذه الظاهرة هو الغريزة الجنسية ؟ الحق انهُ لم يفعل شيئاً من هذا وانما هو قد زعم هذا الزعم وذهب هذا المذهب ، ولكنهُ لم يقم الحجة القاطعة على صحته

ثم ما قول هذه المدرسة في هذه الظاهرة ؟ ابن يحب اباه اكثر من امه ، وابنة تحب امها اكثر من ابيها ، هل هذا مستحيل ؟ هلاَّ يمكن ان نجد هذه الظاهرة بنفس الكثرة التي نجدها في الظاهرة الاخرى ؟ وهل هذا الحب وهذه الغيرة في هذه الحالة ناتجان ايضاً من الغريزة الجنسية

الحق ان هذه المدرسة غالت في توكيد الغريزة الجنسية الى حد انها فقدت توازنها ، وعرضت نفسها للنقد الشديد ، لقد امعنت في هذا المذهب حتى اصبحت لا ترى في رضاعة الطفل من ثدي امه مظهراً من مظاهر الغريزة الجنسية ، واظنه من المعقول ان نزعم ان حركات الرضاعة ان هي الاَّ عمليات عضلية تتطلبها الرضاعة وكفى ، فكل عمل يتطلب بعض الحركات العضلية من غير ان تكون لتلك الحركات غاية خارجة عنها ، كتحريك القراءين عندما يجري الانسان ، وهذا بالطبع لا يستدعي منا ان نبحث له عن دوافع نفسية ، اذ يكفي ان نقول فيه انهُ حركات يستلزمها الجري

ومع كل ما تقدم نستطيع ان نؤكد للقارىء ان الفرويدية خدمت السيكولوجية الحديثة خدمة لا تقدر ، وانهُ لولا هذا المذهب لبقي كثير من المسائل النفسية مستعصياً على الفهم ولصار من المتعذر على علماء النفس ان يعرفوا الدوافع لكثير من تصرفات الانسان ، ولعجزوا ايضاً عن فهم كثير من الاسباب الاساسية لبعض المشكلات النفسية

فان كنا قد تعرضنا لفرويد بالنقد فذلك لاننا نشعر بما له علينا من الفضل في الكشف عن بعض المبادىء الاساسية للسيكولوجية الحديثة